بناء الممالك

درس في حياة الدكتور بينس واعماله

— ٢ —

انقضى الدور الاول من عمل الدكتور بينس باتحلال الامبراطورية النمسوية المجرية وصار من الواجب عليه ان ينصرف الى البناء والاصلاح . لكن البناء والاصلاح كانا شاقين محفوفين بالمصاعب والعقبات لان اوربا الوسطى كانت في حالة تقارب الفوضى العامة وشبح البولشفية يرفرف فوق ارجائها. كانت نار الوطنية المتطرفة تلهب الدول الجديدة التي نشأت في اوربا الوسطى ومزوجو الدعوة الفرنسوية العسكرية كانوا يزيدونها اضطراماً بمساعيهم واصبح العقلاء يخشون امتداد نيرانها الى البلدان المجاورة فتنقلب الوطنية حقداً شديداً ويقضي على الامل بتوطيد السلام قضاء مبرماً . ولم تكد تمضي الشهور الاولى بعد عقد الهدنة حتى ارتفعت اصوات المتشائمين في كل ناحية فكنت ترى الماليين في لندن وباريس الذين تربطهم بمدن النمسا الكبيرة روابط مالية شديدة ينظرون الى الخراب المحدق بمصالحهم بعين الخوف والوجل . واخذ مندوبو الحلفاء ومرافيوهم في اواسط اوربا يتساءلون هل اخطأ الحلفاء في ازالة الملوك عن مقاعد الحكم ووضع مقاليد الامور في ايدي رجال كان معظمهم قبلاً يحرثون الارض ويخدمون في القصور والقناديق ؟ الا يجوز للحلفاء ان يرجعوا بالعهود التي قطعوها فيعيدوا الاحوال الى ما كانت عليه وينصرف كل الى العمل الذي اتقنهُ قائهم لم يقطعوا عهودهم الاَّ توصلاً الى النصر ؟ لكن انحلال الامبراطورية النمسوية كان امراً مفعولاً والحرب انما اسرعت الانحلال ولم تسببهُ ولم تكن المعاهدات سوى توقيع الحلفاء على الامر الواقع وهم لو ارادوا ان يغيروا مجرى الحوادث لما استطاعوا الى ذلك سبيلاً

تلك كانت حالة اوربا الوسطى حين استلم الدكتور بينس زمام الامور الخارجية في تشكوسلوفاكيا ولكنهُ لم يقفل قط عن كبر المهمة التي ندب اليها . انهُ كان يعلم حماسة شعبه وقلة خبرتهم في الامور السياسية والادارية علماً تاماً من علمه اي سياسي في لندن او باريس وكان يمتاز على سائر الساسة في اوربا الوسطى بان لهُ غاية واضحة يسعى لها ومنهجاً

جلياً يسير عليه نحو تلك الغاية وكان ذلك المنهج في رأيه مؤلفاً من مرحلتين : الاولى مرحلة التدمير . وذلك انهُ رأى من الواجب عليه ان يكمل استقلال بلاده الفعلي قبل ان يقع ما يغيّر آراء الحلفاء . فاراد ان يفك كلّ القيود التي تربط الامة التشكية بالنمسا فقضى سنتين ونصف سنة بعد توقيع الهدنة في توحيد الجمهورية التشكية فضرب نقداً تشكياً مستقلاً كل الاستقلال عن اي نقد آخر في اوربا وبسط سلطة الحكومة على مصالح البيوت المالية النمسوية في تشكوسلوفاكيا وجعلها مصالح تشكية وطنية ومنع المضاربين الماليين من الدخول الى بلاده فغضب عليه الماليون في انحاء العالم لكنهُ مضى في عمله لانهُ رآهُ لازماً لتوحيد قوى الامة قبل السير على طريق الاصلاح . وكان عليه فوق ذلك ان يوجد هيئة حاكمة منظمة من شعب لم يعتد الترتّع في مناصب الاحكام لان التشكيين الذين اشتغلوا في الحكومة النمسوية كانوا قلائل لم تتعدّ مراتبهم درجة الكاتب البسيط . ومما زاد الطين بلّة ان اعيان التشك كانوا ينظرون الى الحكومة الجديدة بعين الحذر ولم يشاءوا ان يعاونوها في امر ما لذلك وجب على بنس ومعاونيه من الزعماء ان ينشئوا حكومة من رجال لم يلبسوا ثياباً رسمية في حياتهم . لكن رغماً عن هذه العقبات الكبيرة استطاعت الامة التشكية ان تنظم حكومتها فانفردت بذلك بين الدول الجديدة شرقيّ نهر الرين

ولم ينسَ الدكتور بنس المرحلة الاخرى من الطريق الذي امامهُ وهي اصلاح اوربا الوسطى لتصبح وحدة اقتصادية مستقلة تكفل لبلاده استقلالها السياسي . وهذا عمل كبير يوازي العمل الاول في المصاعب والعقبات التي تحول دون نجاحه بل قد يفوقهُ في ذلك . ففي كل جهة كانت حدود الجمهورية التشكية معرضة لهجمات الاعداء وكانت الاقلية الالمانية المجرية في البلاد تقاوم مساعي الحكومة الجديدة ولم تستطع تشكوسلوفاكيا ان تحسب في عداد اصدقائها سوى يوغوسلافيا ورومانيا لان بولونيا الطامعة في السلطة والنفوذ كانت عدواً بدلاً من ان تكون صديقاً . على ان غايةً واحدة كانت تجمع بين يوغوسلافيا ورومانيا وتشكوسلوفاكيا وهي المحافظة على الحرية والعهود التي ربحوها في معاهدات الصلح المختلفة . فنجم عن هذا الاشتراك في الغاية والمصلحة الاتفاق الاوربي الصغير وزعيمهُ الحقيقي اليوم الدكتور بنس

ولما تمت للدكتور بنس سلامة بلاده من الوجهة العسكرية انصرف بكل قواه الى تحقيق خطته الاقتصادية . ادرك بادىء بدء ان مستقبل تشكو سلوفاكيا الاقتصادي في اوربا الوسطى لا في الخارج وانه اذا اراد ان تستقل بلاده استقلالاً اقتصادياً وجب عليه ان يجد ما يربط دول اوربا الوسطى المختلفة فيجعل منها اتحاداً اقتصادياً مستقلاً . لكنه كان يحذر « الاتحاد » كسائر الشعب التشكي لما اصابهم من الضرر في اتحاد بوهيميا مع سائر الولايات التي تألفت منها الامبراطورية النمسوية . ولذلك كانت خطته انشاء معاهدات اقتصادية بين دول اوربا الوسطى على مبدإ « التفضيل الاقتصادي » ينتهي امرها بشكل من الاتحاد الاقتصادي بينها . وللنجاح في عمله هذا جعل يسعى لاستلفات مالي الانكليز لانه كان يعتقد ان انكلترا البلاد الوحيدة التي تستطيع ان تدين النقود وترغب في تعمير اوربا الاقتصادي . وفي سنة ١٩٢٣ منح امتيازاً لبنك انكليزي تشكي بعضده بنك انكلترا وذلك بعد مقاومة شديدة من متطرفي الحزب الوطني وكانت حكومة تشكو سلوفاكيا الحكومة الوحيدة شرقي نهر الرين التي تمكنت من عقد قرض حكومي في اسواق انكلترا

ثم التفت الى النمسا فرأى ان ليس من مصلحة بلده ان تتحد النمسا والمانيا . ولمنع هذا الاتحاد وجب عليه ان ينجد النمسا . وما من وزير كان يستطيع ذلك سنة ١٩١٩ . لكن الدكتور بنس رأى ان سياسة العطف على النمسا خير وسيلة لانهاضها ولذلك كان اول العاملين على وضع خطة رشيدة لاصلاحها وهي الخطة التي اتبعتها جمعية الامم بعد مؤتمر ولولا موافقته لتعذر عقد القرض النمسوي الدولي الذي حفظ النقود النمسوية من التدهور كما حدث للمارك الالماني . فبُعد نظره ورحابة صدره سهلا انتقال النمسا من الوحدة التي كانت سائرة اليها لو تركت وشأنها او لو وقف بنس ازاءها موقف المتطرفين من قومه . ولا شك في ان هذه السياسة الحكيمة كانت الخطوة الاولى لاصلاح اوربا الوسطى وارجاع اعلام السلام تخفق فوق ارجائها بعد ان دوت في انحائها اصوات المتطرفين من الشيوعيين والبولشفيين

ولا يزال امامه مشكلتان كبيرتان وهما الموقف الذي يتخذه نحو جمهورية المجر والطريقة التي يعامل بها الاقلية الالمانية في بلاده

وسيأتي الكلام في الجزء التالي على اوصافه الخاصة التي تؤهله لان يكون قدوة لغيره من بناة الممالك وعلى نجاح بلاده في عهده